



الأربعاء 2 نوفمبر 2022 08:32 م  
عبد الله الشافعي

{..إن السمع والبصر والفؤاد ... كل أولئك كان عنه مسئولًا} هكذا واضحة صريحة، وبكلمات يفهمها الجميع، لا تحتاج مزيد علمٍ ولا أي تكلف، ولا تستغرق من الإنسان جهدًا ليفهم، فكما أن السمع من أعظم نعم الله على الناس- كل الناس- فشأنه شأن كل نعمة، إما أن يكون طريق العبد إلى رضوان الله- سبحانه- وجنته، وإما أن يكون العبد ممن بدل نعمة الله كفرًا وأحل نفسه وربما غيره معه دار البوار-نعوذ بالله- فيكون سمعه مطيته إلى الهلاك!

ولقد حفظ لنا القرآن الكريم وصية الكافرين لأنفسهم وأتباعهم في ميدان الصراع الشرس الطويل الدامي العسير، صراع الحق والباطل، ذلك الصراع الذي أذن الله ببقائه إلى أن يرث- سبحانه- الأرض ومن عليها وما عليها، فقد ذكر لنا القرآن الكريم في سورة فصلت: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا لِقُرْآنٍ وَّلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} كانت وصيتهم أن يخلقوا أسماعهم عن القرآن، فلا يصل إليها شيء منه، كانت تلك وصيتهم ومنهجهم، وطريقتهم في المحافظة على جنودهم وأتباعهم في دائرة عداوة الحق ومحاربتة، وفي المحافظة على جذوة الحماس وأسس تحزبهم آمنة راسخة. فيضمنوا بذلك قوة مستدامة، ووقودًا لا يخفت أواره.

فهل كان القوم كارهين للقرآن ولكل ما له صلة به، و لكل ما يذكرهم به، فصدر عنهم ما صدر؟ أم أنهم كانوا على دراية بأثر السماع في النفوس، وعمله الضخم في تغيير الفناعات، وتحويل المشاعر! ولذا كانت كلماتهم صارمة واضحة، وكان النهي في غايته، والتحديد قاطع لا مرية فيه {لا تسمعوا لهذا القرآن}.

أرى أنهم كانوا يكيدون لهذ الدين، وقد كانوا جادين في صرف الناس عنه، وفي صرف أنفسهم كذلك، وقد كانوا جادين في محاولة التفلت من تأثير القرآن أو على الأقل في إضعاف أثر القرآن في الناس وفيهم، وأرى أنهم كانوا يعلمون مدى الخطر الذي يمثله الاستماع لمثل القرآن في حلاوته وجاذبيته، والأغلب أنهم كانوا يدركون بفطرتهم وخبرتهم في الحياة- كانوا يدركون جيدًا سطوة الكلمة وسحرها؛ لذا فقد اجتهدوا أن يحولوا بين الناس وبين سماع القرآن الكريم.

على أنه في الجانب الآخر من الصراع- في جانب الحق والهدى والنور- نجد القرآن الكريم يمنع المؤمنين من سماع الباطل واللغو، يحرم عليهم أن يسمعوا الكفر والاستهزاء بآيات الله- سبحانه- {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي لَآلِكِتَابٍ أَن إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} إِنَّكُمْ إِذًا مَثَلُهُمْ إِنَّ لِلَّهِ خَائِعٍ لِلْمُتَّقِينَ وَاللَّكْفِيرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا

والقرآن إذ يشدد ويعظم جرم الاستماع للباطل واللغو والكفر وكل ما فيه غضب الرب العظيم، فهو يمدح المؤمنين بصفات تطهير سمعهم والنأي بأنفسهم عن مثل هذا: {وَإِذَا سَمِعُوا لِلَّغْوِ اعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا اعْمَلْنَا وَلَكُمْ اعْمَلْكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا تَنْتَعَى لِلْجَاهِلِينَ}.

فالأمر إذن واضح جلي، إن للاستماع قوة تأثيرية، وللکلمة سحرها، وعلى الإنسان أن يأخذ حذره، وعلى المؤمن أن يحفظ أذنه مما يلوثها، ومن ثم يتسرب هذا التلوث للقلب فيفسده، وللعقل فيعمي، وللغفيرة النقية فيطمسها، لقد أعلن الله أن شريعتنا كلها في جملتها وتفصيلها يمثلها دور رسولنا الكريم ﷺ فهو كما وصفه ربه في كتابه {يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث} فكل حلال مباح فهو طيب بالضرورة، نافع للفرد وللمجتمع وللأمة كلها، وكل ما حرم الله فهو الخبيث الضار المهلك المؤذي- للفرد والجماعة والأمة كلها. فحين يحرم الله الاستماع

لما يحرم قوله أو فعله فليس للمؤمن إلا أن يلوذ بجناب ربه، ويمتنل أوامره ويحفظ حدوده.

وكم رأينا وسمعنا من ألوان الهلاك والخراب والدمار في خواص الأفراد، وفي البيوت، والتجمعات! كم رأينا فسادًا بعد صلاح، وجرائم يرتكبها من كانوا أبرياء أعرارًا، كل ذلك بفعل الكلمة، وبتكرار الكلمة، كل ذلك بتأثر من تأثر بسموم الكلمات، وقوتها التدميرية. بل إن الكلمة قد تشعل حروبًا، وتقيم عداوات، فتهلك جيوشًا وأممًا وحضارات.

إننا لا نتحدث اليوم عن خطر الكلمة وأثرها على قائلها، بل، نتحدث عن خطر الاستماع، وعن هلاك المستمع، وضعف النفس أمام الكلمة، لا سيما إن كانت متكررة، أو صادفت شهوةً، أو ضعفًا، أو مصلحةً، أو غيرها مما يستخدم الشيطان في إغوائه وإفساده. فكم من مسلم ومسلمة وقع في الكبائر والموبقات بسبب كلمات شيطانية، ردها على مسامحة شياطين الإنس، وما زالوا به وبها، فبالتكرار والتزيين يضعف العقل، ويميل الطبع، ويكون الهلاك!

رأينا هذا في حياتنا، وبنقله لعلنا نتعظ، ونصح به لعل الله يحفظنا، ويستر عيوبنا، ويجبر كسرنا، ويحفظنا وأحبنا من كل ضلال. إنها الكلمة بسحرها وقوتها، بأسرارها وتأثيراتها، فاحرص أن تكون مع المؤمنين، واحذر أن تتساهل، فما أقرب الفتنة من المتساهلين.

واعلم أن الإعراض عن اللغو- كل اللغو، وإعلان الحق في كل موطن، والوضوح فيه، والتواضع وعدم الاعتزاز، والخوف من الفتنة، والحذر من مخالفة أمر الله ورسوله في كل صغيرة وكبيرة، والصرامة في ذلك كله هو الطريق الأمانة، وهو الرجاء العملي للثبات عند المحن، والفوز عند الفتن، والنجاة.

<https://ikhwanonline.com/article/256134>